الفصل الحادى عشر

ختـــام

كدت أكتب عنوانًا لهذا الفصل (كلف فى الشمس) .

ثم عدلت عن هذا العنوان إلى (غروب حزين) .

ثم فضلت أن يكون عنوان الفصل الأخير ، هو لفظ الختـــام، فـهو لفـظ، أليق بهذا الفصل الأخير.

كان طلعت فى سنة ١٩٣٩ ، قد بلغ الثانية والسبعين من عمـره، وكـان فى وسعه بل من حقه، أن يتخفف من أعماله، وأن يلتمس لنفســه أسـباب الراحة وانتجاع الصحة، بعد سنين طويلة من الجهاد، وكان ما حققــه مـن النجاح، وما أرسى أسسه من الأعمال، وصروح المنشآت، وما بذره من بذور صالحة، أنبتت كل الأشجار، التى حملـت أجمـل الثمـار، كـان هـذا كلـه شفيعه فى طلب الراحة، وهو قرير العين راضــى النفس، مرتـاح الضمـير، يتأمل فيما عمل، ويســجل مذكراتـه، ويعطـى نصائحـه لأولاده، وأحفـاده كلما طلبوها، أو كلما أحس أنها لازمة ولا غنى عنها.

ولكن ليس فى تقاليد شعوبنا، أن يعتزل الرجل الكبـير الموفـق النـاجح، عمله الكبير، وهو فى قمة التوفيق والنجاح. وطلعت حـــرب ، كـان أحـق الناس وأولاهم، بألا يبدأ هذا التقليد، الذى هو تقليد الوفرة والكثرة، الوفرة والكثرة فى الرجال، أما والرجال فى بلادنا - كما يقـول الشـاعر - قليـل، فإنه يكون من التبذير والتبديد أن تحرم البلاد، من رجـل فـى مثـل كفايـة وخبرة وإدارة وشخصية وحماسة وعلم طلعت حرب .

ولم يكن فى الواقع ، ما يدعو إلى مجرد التفكير فى اعــتزال العمـل فـى بنك مصر، فقد كان طلعت حرب متمتعًا بالصحة، قـادرًا علـى العمـل مـن

الصباح الباكر حتى المساء، أو الليل، وكانت أمام البنك وشركاته فرص للعمل والتوسع والإضافة والتجديد، ولم يكن يلوح في الأفق نذر أزمة يتعرض لها بنك مصر، وإن كانت النذر قد توالت معلنة مقدم أزمة عالمية، وكارثة ستجتاح هذه الكرة الأرضية المسكينة المعذبة التى لا تفرغ من أزمة، حتى تدهمها أزمة، ولا تنجو من حرب حتى تباغتها حرب أكثر ضراوة.

كان طلعت حرب قد صور حال العالم فى تقرير بنك مصر سنة ١٩٣٨ فقال: شهد العالم (فى عام ١٩٣٨) غيوما لبدا، وأحيط بالظلمات ركاما بعضها فوق بعض، ونفخ الناس فيه رياح عاصفة من كل جانب أثارت النقمة وراء كل رأى وفكر واستنتاج، فلا خطوط الطريق واضحة سليمة ولا الجو كان هادئًا صافيًا، ولا البحر كان آمنًا، ولا الأفق كان ينبئ عما وراءه، فالمقاييس والضوابط - على العهد بها - مختلة معتلة، والنظريات مقلوبة، والمنطق معكوس والنفوس تتقلب على جمر الشك والتردد، والعالم مأخوذ بهذه الحالة المعتلة المربكة كأن شبحًا مخيفًا مرعبًا يتعقبه، يريد أن يمسك به ليجرده من إنسانيته، ويعود به إلى القرون الأولى **﴿وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض، أم أراد بهم ربهم رشدا﴾** لقد فرغت النفوس إلا من الهوى، والصدور إلا من الأنانية والأفئدة إلا من المطامع، وكل أولئك نوازع شر لا يستقيم معها أمر، ولا يتضح نهج ولا يبين سبيل).

هل كان قلب طلعت حرب يحدثه وهو يكتب هذه السطور، ليطالع بها الناس فى أخريات سنة ١٩٣٨ أو أوائل سنة ١٩٣٩، بما سيصيبه هو، وسيصيب بنك مصر معه، بعد وقت جد قصير، قبل أن يجف مداد هذا التقرير السنوى الذى يقطر تشاؤما.

هل كان قلبه يحدثه، أن النفوس التى فرغت إلا من الهوى، والصدور التى خلت إلا من الأنانية، والأفئدة التى برئت إلا من المطامع، ستطبق

عليه، فتطيح به من مقامه العالى، حصنه الحصين، على الرغم من مناعته وحصانته ضد النقد، فأصبحت ذاته - كما قلت - مصونة لا تمس .

على أى حال ، اندلعت الحرب العالمية الثانية فى اليوم الأول من سبتمبر سنة ١٩٣٩، إذ تدفقت، جحافل ألمانيا الهتلرية، على بولندا، والتهمتها فى سبعة عشر يومًا لا تزيد يومًا، ثم استدارت للغرب، فدارت حول خط ماجينو، الذى ظنت فرنسا وراءه أن حصونها مانعتها من شر النازية، وهوت فرنسا، مع أن ما كان لديها من عتاد فى البر والجو والبحر يزيد عن عتاد ألمانيا، على ما كشفت حقائق ما بعد الحرب، خصوصًا كتاب (شرر) المعنون (انهيار الجمهورية الثالثة) .

ومضت الحرب قدمًا على ما وصف طلعت حرب، كان شبحًا مخيفًا مرعبًا، يتعقب الناس يريد أن يمسك بالإنسان ويجرده من إنسانيته ويعود به إلى القرون الأولى .

ودنت الحرب بمخاطرها المباشرة فى سنة ١٩٤٠، حينما بدا أن جيوش المحور، وبصفة خاصة، جيوش القائد المظفر (رومل) تقترب من مصر، اقترابًا شديدًا، وأنه لن يمضى إلا أقل القليل حتى تكون بريطانيا، قد فرت مذعورة بجيوشها إلى الجنوب والشرق، مفسحة الطريق للشريكين هتلر وموسولوينى . وفى حالات الذعر، يطيش كل صواب، وتضيع حكمة التدبر والاتئاد، لذلك أسرع الناس إلى البنوك، ومنها بنك مصر، إلى سحب ودائعها، ولم يستطع بنك مصر ، تلبية طلبات السحب واعتبر متوقفا، وأصبح لا مناص من أن تتدخل الحكومة فأصدرت القانون رقم ٤٠ لسنة ١٩٤١، لدعم بنك مصر، ونحى طلعت حرب من مكانه على رأس البنك .

لا شك أنه كان فى الإمكان إنقاذ البنك، بغير هذا السبيل القاسى، وكان ممكنًا فى جميع الأحوال، ألا يمس طلعت حرب، على الأقل فى

هذه اللحظة، فإن ماضي الرجل، وخدماته تشفع له في أن يعامل وقت الأزمة بالإجلال والإكبار، حتى لو ثبت في جانبه بعض الخطأ، أو خطأ جسيم، إذ لا معنى للماضي الحافل، والأيادي السابقة، والجهاد المشكور، أن لم تشفع عند السقوط والتردي .

ولكن طلعت حرب ، طال عليه صبر المدارس السياسية والحزبية، التي لم يكن ينتمي إليها، ولا يتصل بها، ولا يشاركها في لعبتها. لعبة الدخول في الوزارات، والخروج منها، والاقتراب من القصر، والارتداد عنه، والارتماء في أحضان السفارة البريطانية، ممثلة الاحتلال الباقي، والتأبي عليها، كان جميع الساسة بغير استثناء يسبون ويقذف في حقهم ويعبث العابثون بهم، وتشيع في المجالس والأندية، فضائح لهم، إلا طلعت حرب: جالس متربع على قمة عالية، يبدو مشغولاً بمهام جدية، وبإنشاء، وتعمير ، وخلق ، لا يلقي باله لما يجري في السفح من خصام وصلح، ومن عتاب وعنف، ومن عناق وعراك، فكان لابد من أن تنتهز فرصة جاد بها الزمن، لجذبه من فوق هذه القمة العالية، والإلقاء به إلى أسفل الجبل، ثم إشباعه ركلاً وقد كان.

ويعجب الإنسان ، وهو يصل إلى هذه المرحلة من حياة طلعت حرب، من أن التاريخ يدخر للعظماء ، أكثرهم إن لم يكن كلهم، خواتم مفاجئة ، كأنه يعتقد بأن هذه الخواتم الفاجعة أو المثيرة، تتفق وتنسق مع سيرة العظيم، وشخصيته، وأن الموت الهادئ البطيء، لرجل عظيم، منزو، بعد أن نفض يده من الحياة، لا يليق بالعظماء ، فهذه ميتة الملايين من البشر. أما غاندي والداعي إلى السلام، فيضرب بالرصاص، وهو ماضي إلى صلاة كل يوم عند الغروب، أما عمر بن الخطاب الذي تهابه الإنسانية كلها، لفرط شجاعته، وأمانته، وعدالته، وزهده والذي لم يتهم في مال، ولا هوى من أهواء الدنيا أو الحكم، يطعن خاصرته مجوسي، لدافع لم أتبين جديته

ولا خطره حتى اليوم ، ونابليون بونابرت الذى خاض المواقع وأطاح بعروش، بعد هزم الجيوش، يغلب فى معركة لا تقاس فى شىء بمعاركها الكبرى: استر لتز، وييينا وكامبو فورميو، ثم يسحب إلى جزيرة مجهولة فى عرض المحيط، ليكون فراش نومه، هو ميدانه الأكبر، بعد أن كانت أوروبا كلها تضيق بجواده وهو يعدو إلى غايته .

إذن ليس من حق طلعت حرب أن يبتئس لأن التاريخ عامله، كما يعامل الأبطال والعظماء، فأبى عليه أن يموت، وهو فى قمة مجده، ليشيع إلى ثراه، محوطاً بهالات المجد التى صنعها بيده ساهرًا، مجدًا .

نحى طلعت حرب ، وبدأ الطعن فيه، وفى إدارته، وفى أسلوب عمله وقبل تنحيته ذهب إلى وزير المالية حسين سرى، يطلب من الحكومة أن تقف مع البنك، فقال الوزير: يا طلعت باشا إدارتك للبنك سيئة، فرد على الفور: (لقد كنت أعطيك بيدى هذه كخبير لشركة المحلة ستمائة جنيه كل سنة، فكيف تكون اليد التى تقبل منها هذا المال، يد لا تحسن الإدارة) وقد كان أكبر ما نسب إليه أنه حبس أموال البنك السائلة، التى كانت يجب أن تكون فى متناول عملاء البنك يسحبون منها متى شاءوا، حبسها فى شركات صناعية أنشأها البنك .

والتهمة كما ترى هينة ، لا تثبت طويلا للتمحيص، ذلك لأن ما أصاب بنك مصر، كان دون ما أصاب مصارف ومنشآت، ومؤسسات فى أوروبا وأمريكا بلاد المال، والمصارف وبلاد الحروب وأزمات القتال والسياسة. فليس بالشىء الغريب، والناس على أبواب حرب لا يعرفون مداها أن يصيبهم الهلع، وأن يضطرب عملهم، وأن يكون من بين ما يضطربون فيه، ما يتعلق بأموالهم، قوام حياتهم، وأحب شىء إلى الإنسان. ولو أصدرت الحكومة قانون عدم الدفع أو تأجيل الديون، لمدة أيام لهدأت الأعصاب، واستقرت الأحوال .

على أن بنك مصر، لم ينشأ قط، ليكون مصرفًا كبقية المصارف، ولقد مر بنا في هذا الكتاب، أكثر من موضع، حديث طلعت حرب من اليوم الأول لإنشاء البنك، أنه جاء ليستثمر الأموال الموجودة في البلاد، والتي لا ينتفع بها، إما لأنها مودعة في مصارف أجنبية، لا تستثمر أموالها في مصر، بل في بلادها الأم، وإما لأنها مخبوءة في الدور، لا يعرف أصحابها طريقهم إلى المصرف .

وسياسة بنك مصر، في اقتطاعه جزء من أرباح المساهمين، في كل سنة، للمساهمة بها في أقسام شركة جديدة حتى بلغت شركاته فوق ١٥ شركة . وقد كانت سياسة بنك مصر هذه معلنة، في ميزانيات، وحساب أرباحه وخسائره، وفي تقاريره السنوية المقدمة للجمعيات العمومية للبنك، والمنشورة في الصحف .

وهذه السياسة لم يكن إخفاؤها على الرأى العام، وعلى الحكومة ممكنًا، ولم تجد إلا التأييد والتحبيذ، والتشجيع . ولا أحسب أن طلعت حرب كسب مكانته التي ظفر بها، لأنه أنشأ مصرفًا مصريًا، بمال المصريين، وجعل الأسهم فيه اسمية ليضمن أنها لن تصل إلى يد الأجانب ليضمن بالتالي بقاء المصرف، خاضعًا لسياسة أبناء الوطن الذين أنشئوه بمالهم . لو اقتصر نشاط طلعت حرب على هذا الجهد، وهو جهد عظيم، لما كانت له المكانة، التي كسبها في قلوب المصريين ثم العرب . إنما الأثر الباقي له في حياة بلاده، والدين العظيم، في أعناق مواطنيه، هو أنه اتخذ المصرف وسيلة لإنشاء صناعات، وأنه خطا بهذه الصناعات، فخرج بها من طور الإنشاء والتجربة إلى دور الإنتاج الذي يصمد للمنافسة العالمية، بكل شدتها وضراوتها. ثم بلغ من استقرار هذه الصناعات، حتى بدت قديمة قدم المصري نفسه، ولم تلبث حتى ولدت صناعات مكملة له .

على أن أفضل دفاع عن بنك مصر، نفسه، أن الحكومة، التي أقرضت البنك بمقتضى قانون الدعم رقم ٤٠ لسنة ١٩٤١، ٢ مليون من الجنيهات، حصلت في مقابل هذا القرض ألف حصة تأسيس، فلم يمض على صدور هذا القانون سوى ثلاث سنوات حتى استطاع البنك أن يسترد هذه الحصص، وقد خصص في السنة الأولى عقب الأزمة من أرباحه ٣٥٠ ألفا من الجنيهات أي فوق ربع المليون ليواجه بعض ما فرضه قانون الدعم.

وقد قيل - ضمن ما قيل ضد طلعت حرب - أنه كان يؤثر بعض أصدقائه بعطف خاص إذ كان يقرضهم على المكشوف، وقد كان دفاع طلعت حرب، أن هؤلاء كانوا من أكبر عملاء البنك، وأن بعضهم كان يستأثر بأعظم نصيب من تجارة القطن في مصر، وأن التعامل معهم كان يهيء للبنك ربحاً سنويًا ضخمًا على أنه بعد تسوية جميع هذه الديون، ومعرفة ما كان مشكوكًا فيه، أو معدومًا، ثبت أن البنك لم تلحقه من هذه العمليات التي كانت موضع الطعن، شيء يذكر.

ولكن هل ذهب طلعت حرب إلى التاريخ، خاليا من كل عيب ..

أولاً، هذا أمر تأباه طبيعة البشر، فما من رجل عظيم إلا وله عيوبه، وثانيًا، في بلد كمصر، خرج من أحداث تهز الشعوب، في أقوى عهودها، فما بالك بشعب توالت عليه الكوارث، واصطلحت عليه المصائب، ونحي عن الحكم، وعن التفكير لنفسه قرونا عديدة. في بلد هذا شأنه، لا تخلو رجاله العظماء، من العيوب السائدة في الشعب نفسه.

وأكبر عيوبنا هو الاستئثار بالرأي، والانفراد به. وأن العظيم منا، يحسب أنه باق إلى غير حد، فلا يفكر، في أن ينشئ إلى جانبه رجالاً يخلفونه، ويكونون في مثل علمه وعظمته.. فالفرق بين الرجل الأول، والذين يلونه مثلاً في بلاد الشرق، يكون عادة شاسعا، فالمثل الذي ضربه

محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، للعرب والمسلمين، لم يتدبره أحد من زعماء المسلمين أو الشرق حتى حين قريب. حتى الحركة الغاندية التى كنا نحسب أنها ولدت عددًا من العظماء، يأخذون عن غاندى، وينسجون على منواله، مجازا وحقيقة، بدت بعد قتله، ووفاة نهرو، أنها تعوزها الرجال .

ولما مات (أتاتورك) بدا الميدان مجدبًا إلا من عصمت اينونو، الذى لم يكن له من مواهب أتاتورك الشىء الكثير.

لقد حدث طلعت حرب الأمة بأن بنك مصر مدرسة، ولكنه طوال وجوده، لم يكن يعرف المصريون عن بنك مصر، إلا صورة طلعت حرب نفسه، فهو المنشئ ، والمفكر، والمتحدث ولا أحد سواه .

وكان الثابت أن كبار معاونيه لم يكونوا، فى مستواه، أما الذين بعدهم، فلم تتح إلا لبعضهم حتى اليوم فرصة، يثبتون فيها للأمة، أن البنك كان مدرسة حقا، وأنه أخرج فى مجالات المصارف، والاقتصاد، والمال، والصناعة والإدارة العامة، رجالا ازدانت بهم الحياة العامة .

ليس من شك فى أن بنك مصر، علم الألوف من أولادنا العمل المصرفى، وأنهم أتقنوه وأنهم كانوا فخر بلادهم فى هذا المجال . ولكن هذا القدر، كان دون ما يطمع فيه المصريون .

ثم لقد كان الأمل فى أن يكون بنك مصر، الوسيلة إلى تحرير العقلية الإدارية المصرية من ربقة العقلية الإدارية الحكومية، التى ورثناها عن الأتراك ثم عن الإنجليز ثم عن الأحزاب المشغولة بمعاركها الخاصة، والذى حدث أن بنك مصر، استعان فى إنشائه بالحكوميين فنقلوا هذه العقلية معهم إلى البنك، فأصبح بين البنوك الأجنبية، أقلها مرونة، وأكثرها التزامًا للضوابط الإدارية الحكومية فى بلد كانت تشكو فيه من عجز الأداة

الحاكمة وترجو من الله أن يأتي المنقذ الذي يخرجها من هذا الضيق الذي طال عليها احتماله، والذي أخر وصولها إلى هدفها، وكبل ملكات الابتكار والتجديد والمخاطرة في أبنائها .

وشيء آخر لعلي وحدي ، أو معي عدد قليل، الذي يأخذه على طلعت حرب ، ذلك هو قلة الوفاء لذكرى، رجل، كان له أكبر سهم في إنشاء بنك مصر وشركاته، فبخبرته ودراساته، وسهره المتصل، ونكران ذاته، وبعده عن الشهرة، وزهده في المال، وتفانيه في الخدمة العامة. مصري عظيم، لو ذكر، لتساءل الناس من يكون ؟ ذلك هو الدكتور سيد كامل الذي كان خلف هذا العمل المصري العظيم : بنك مصر وشركاته .

ولقد كان سيد كامل – وليس هذا المكان موضعًا للإفاضة في الحديث عنه – من تلاميذ مصطفى كامل، يطلب العلم في أوروبا، وكان من أوائل الذين حصلوا على درجة الدكتوراه من فرنسا في الاقتصاد، وكان من هذه الطليعة المجازفة المخاطرة التي نفيت إلى أوروبا خلال الحرب العالمية الأولى، فكابدت من شظف العيش، ومن ضيق الرزق، ومن مطاردة الإنجليز، أهوالاً لم يكتب أحد بعد عنها كما يجب ، وعاد إلى مصر، سيد كامل، بعد أن أعلن الدستور ، وأصبح غير ممكن الحيلولة بينه وبين العودة ، وحاول الملك فؤاد أن يسترضيه، ويكسبه لصفه، ولكنه أبى، ولاذ بعزلة شديدة ، يدرس ويكتب، حتى كانت فكرة بنك مصر، فوهبها كل نفسه : وقتًا وعملاً وتضحية . ثم مات وهو بعد في سن الرجولة المكتملة، واختفى من التاريخ تمامًا . لم يذكره طلعت حرب في خطبه، ولم يكتب عنه مقالاً دع عنك كتابًا، ولم يطلق اسمه، على قاعة أو مكتبة، أو لم توضع له صورة في شركة من الشركات التي درس لها، وبحث من أجلها. هذا مأخذ لا يغتفر.. ولكن أي عظيم خلت حياته من مثل هذه المآخذ .

لاذ طلعت حرب بالعزلة ، وصبر صبرًا جميلاً على ما ناله من أذى، ولكنه عاش حتى رأى أن وليده العزيز وأخواته الشقيقات، يصمدن للمحنة، ويجتزنها، ويعدن كما كن قرة أعين للمصريين، وطليعة مجد صناعي، مرتقب ..

ولم يطل سفر الغروب، وكان من الممكن أن تطول، فقد مات في ٢١ من أغسطس سنة ١٩٤١ في بلده النعناعة، قريبا من دمياط. كان غروبًا حزينًا ولكنه لم يخل من روحانية وتصوف طلعت حرب الذى كان يكشف عن نفسه دائمًا في خطبه ومقالاته ، وأحاديثه وأعماله .

كان غروبا حزينا ، ولكنه لم يخل من عظمة غروب الشمس، ففى حين كان طلعت حرب بعيدًا عن الناس، عن الدار التى أنشأها وأحبها، عن التفكير والعمل للصناعة والتجارة، كان بنك مصر يعمل، وكانت شركاته تنتج، وكان إنتاج شركة مصر للغزل والنسج بالذات، هو الذى أنقذ المصريين، وخصوصًا فقراءهم من أزمات محققة في سنى الحرب القاتمة .

كان من حق طلعت حرب أن يتساءل أين كانت مصر الصناعية، قبل ٧ مايو سنة ١٩٢٠ ثم أين هى في أغسطس سنة ١٩٤١، حينما شعر بدنو شبح الموت منه، ودعوته له أن يتهيأ للرحلة الأخيرة، وكان من حقه أن يقول ما قاله فى ٧ مايو سنة ١٩٣٥ ، حينما كان يحتفل بانقضاء ١٥ عامًا على ميلاد بنك مصر، من أن البنك ركز اسم مصر فى الهواء والماء، وفوق الجبل ..

كان من حقه أن يقول ، لقد تغنى مصطفى كامل بمصر، وهتف لها ، وأنشد الأناشيد، وأنا جعلت هذا الاسم، فوق البواخر، والطائرات ، وعلى ساريات الأعلام فوق أبنية الشركات فى مصر، والأقاليم، وفى سوريا ولبنان وجدة ومكة .. فإذا كان الغروب حزينا ، فأى غروب يمكن أن يكون

مفرحًا ومبهجًا، حتى غروب الشمس العظيمة؛ وإن خضب جبين الأفق بألوانه الحمراء القانية؛ إلا أن الشمس نفسها، لا تملك أن تنكر، أن الظلام يحدق بالعالم، ويزحف حثيثًا، وأنها شاءت أو لم تشأ، ستختفى، ولكن ما أعظم العزاء. إنها حينما تختفى، لا تختفى إلا فى نظر الإنسان القاصر، لأنها تختفى هنا، لتظهر هناك، وتختفى فى جانب من الأرض، لتشرق فى جانب آخر، حتى الجانب الذى تختفى عنه، تفسح مكانها للقمر، الذى يعكس ضوءها الباهر، فيكون أحلى وألطف وأدعى للراحة والتأمل والتفكير.. إذن أنه غروب عظيم، وليس غروبا حزينا.. إنه غروب يعقبه شروق ويعقبه صفاء، ويعقبه أمل..

لهذا اتجه طلعت حرب بعقله، ونفسه إلى الخالق العظيم، واسم مصر، المرفرف فوق أعلامه الخفاقة، فوق الجبل، وفى البر، والبحر، والجو، تودعه بأجمل ما سمعت الآذان من نشيد:

هذا رجل أحب مصر.

ومصر أعظم الأوطان.

فهو إذن عظيم لأنه ابن أعظم من عرفت الإنسانية من شعوب.